

في النقد

الرافعي وطه حسين — تحت راية القرآن — كلية ودمنة — شاعر
الملك — الرافعي والابراشي باشا — الرافعي وعبد الله عفيفي — الرافعي
والعقاد — على السفود — وحي الأربعين



سأحاول في هذا الفصل أن أحدث عن شيء مما كان بين الرافعي وأدباء عصره ، وإنه لحديث شائك ، وإنني منه لفي حرج شديد . لقد مات الرافعي ولكنه خلف وراءه صدى بعيداً مما كان بينه وبين أدباء عصره من الخصومات الأدبية ؛ فما أحد منهم إلا له عنده ثأر وفي صدره عليه حفيظة أو له عليه معتبة ؛ ولقد اهتزت بلاد العربية كلها لنمي الرافعي وما اختلجت نفس واحد من خصومه فكتب إلى أهله كلمة غراء ، إلا رجلاً واحداً كتب برقية إلى ولده ، هو الدكتور طه حسين بك ؛ فلا جرم كان بذلك أزه خصوم الرافعي وأعرافهم بالأدب اللائق ! ولقد مضى ما مضى منذ ترك الرافعي دنياه ؛ فهل رأيت أحداً منهم كتب شيئاً عنه يناله بالمدح أو المذمة ؟ وهل رأيت اللجنة التي تألفت لتأيينه قد استطاعت أن تحمل واحداً من هؤلاء على أن يشاركها فيما تعمل لتأيين الرافعي ، أو قل لتأريخ عصر من عصور الأدب قد انطوى تاريخه بين أعيننا ويوشك أن يضيع في مدرجة النسيان ... ؟

ليت شعري أكان الرافعي من الهوان في المنزلة الأدبية بحيث لا يذكره ذاكر من زعماء الأدب العربي ولما ينقض على موته بضعة أشهر ، وبحيث تجتمع لجنة التأيين وتنفض وتحدد الموعد لحفلها ثلاث مرات ثم لا تجد من يتقدم إليها ليقول في تأيين الرافعي ، فتوشك أن تنسأ الأجل إلى غير ميعاد ... حتى إذا مضى العام فاحتفلت فلسطين ، واحتفلت سوريا ، واحتفل العراق ، واحتفل العرب في المهاجر

من وراء البحار بذكري الرافعي ؛ أقامت لجنة التأيين في مصر حفلها كما اتفق أن تكون لا كما كان ينبغي أن تكون ؛ تخرجاً من التهمة بالمعوق ونكران الجميل ؛ ولكنه هو - رحمه الله - الذي ألّب على نفسه هذه العداوات حياً وميتاً . لقد كان ناقداً عنيفاً حديد اللسان ، لا يعرف المداراة ولا يصطنع الأدب في نضال خصومه . وكانت فيه غيرة واعتداد بالنفس ؛ وكان فيه حرص على اللغة « من جهة الحرص على الدين ، إذ لا يزال منهما شيء قائم كالأساس والبناء : لا منفعة فيهما معاً إلا بقيامهما معاً » . وكان يؤمن بأنك « لن تجد ذا دخلة خبيثة لهذا الدين إلا وجدت له مثلها في اللغة » ... فكان بذلك كله ناقداً عنيفاً ، يهاجم خصومه على طريقة عنتره : يضرب الجبان ضربة ينخلع لها قلب الشجاع ؛ اقرأ له في أول كتاب المعركة : « ... إنما نعمل على إسقاط فكرة خطيرة إذا هي قامت اليوم بفلان الذي نعرفه ، فقد تكون غداً فيمن لا نعرفه ؛ ونحن زُردٌ على هذا وعلى هذا برد سواء ، لا جهلنا من نجهله يلطّف منه ، ولا معرفتنا من نعرفه تبالغ فيه ... فإن كان في أسلوبنا من الشدة ، أو العنف ، أو القول المؤلم ، أو التهكم ؛ فما ذلك أردنا ؛ ولكننا كالذي يصف الرجل الضال ليمنع المهتدي أن يضل ، فما به زَجْرُ الأول بل عظة الثاني ... »

وأول ما أعرف للرافعي في النقد ، مقاله في (الثريا) عن شعراء العصر في سنة ١٩٠٥^(١) ؛ ثم مقاله في الرد على المرحوم المنفلوطي في المنبر ، وكان نشر مقالاً يعارض به رأي الرافعي في الشعراء وينتصف به لصديقه المرحوم السيد توفيق البكري ، فكتب المرحوم حافظ إلى الرافعي يقول : « قد وكت أمر تأديبه إليك ! » ثم كانت مصاولات أدبية بينه وبين الجامعة المصرية غداة نشأتها في سنة ١٩٠٨ - ١٩٠٩^(٢) ، ثم مقالات عن الجديد والقديم ، والعامية والفصحى ، في مجلتي البيان والزهر^(٣) ؛ ثم خصومة بينه وبين لجنة النشيد القومي في سنة ١٩٢١ ؛ ثم وقعت الواقعة بينه وبين الدكتور طه حول كتاب رسائل الأحزان في سنة ١٩٢٤^(٤) في السياسة الأسبوعية ؛ فكان هذا أول ما بينهما ؛ ثم كانت

(٢) المعركة تحت راية القرآن

(١) انظر ص ٣٧ من هذا الكتاب

(٣) ، (٤) : المعركة تحت راية القرآن

المبارك العنيفة بينه وبين العقاد، وبينه وبين عبد الله عفيفي، وبينه وبين زكي مبارك؛ إلى ما لا ينتهي من المصاومات بينه وبين أدباء عصره .

على أن أشهر هذه المعارك شهرةً هو ما كان بينه وبين طه ، وبينه وبين العقاد بل لعلها أشهر وأقى ما في العربية من معارك الأدب ، وإنها لجديرة بأن يؤرخ بها في تاريخ النقد كما كان العرب يؤرخون بأيامهم ...

وإنني لأشعر أن علي واجباً أن أكشف عما أعرف من الأسباب الخاصة أو العامة التي نشأت بها هذه الخصومات الأدبية أو انتهت إليها ، وإنني لأشعر بجانب ذلك أنني أ كلف نفسي بهذا فوق ما أستطيع .

إن كل ما تناولته إلى الآن من تاريخ الرافعي كان له هو وحده، فلا عليّ ما دمت مطمئن النفس إلى ما أكتب ؛ أما الآن فسيكون إلى جانب اسم الرافعي أسماء ، وإيهم لندوو حول وسلطان ، فما أدري أيرضون ما أكتب عنهم أم يسخطون . ولقد رأيت ما فعلت بالرافعي شجاعته فمات لم يذكره أحد منهم أو يترحم عليه ؛ وما أنا كفاء لهذه العدوات ، ولست لها بأهل ، ومالي طاقة بالدفاع عن نفسي ، ولا لي أنصار ذوو لسان وبيان ، وما تهون عليّ نفسي ... !

ولكن ... ولكن من عذري يوم الحق من كتمان الشهادة ؟ ولكن ... ولكن ما أنا إلا راوية يكتب ما رآه لا ما ارتآه . ولكن ... ولكن فلاناً وفلاناً اليوم أناسيّ تصول وتجول ، وإنها غداً لصفحات من التاريخ تتحدث . ولكن ... ولكن التاريخ قد وقع فلا سبيل إلى محوٍ فيه أو إثبات . ولكن ... ولكن الندم على ما كان لا يمحو من تاريخ الإنسان ما كان ...

فهذا عذري عند فلان وفلان ممن يتناولهم حديثي بما يفضب أو يسوء ؛ فإن كان لي عندهم عذر من الكتمان إن كتمت الشهادة فإني على الأهبة لأن أطوى من هذا الحديث ما قد يفضب أو يسوء ...

أما وإن تاريخ الرافعي في هذا الفصل هو تاريخ الأدب في جيل من الأدباء ؛ فإن كان من حق أحد أن يعتب عليّ لنشر هذا الفصل فإن حق الأدب لأوجب ؛ وما أريد من فلان وفلان شيئاً ، ومالي عندهم حاجة ولا لهم عليّ يد ؛ فليفضب من يفضب للحق أو لنفسه فلا عليّ من غضبه أو رضاه ، وإني لماض فيما أنا بسبيله ...

بين الرافعي وطه

في سنة ١٩٢٢ كانت السياسة الأسبوعية هي صحيفة الأدب والثقافة ؛ وفيها كان يعمل الدكتور طه حسين في الأدب وفي السياسة معاً ؛ ولم يكن بين الرافعي وطه يومئذ شيء يثير نائرة في الصدر ، أو يدعو إلى عتاب وملامة ، ولكن إرهابات كانت تسبق ذلك يوضع عشرة سنة ..

كان طه حسين في سنة ١٩٠٩ هو الطالب المرموق في الجامعة المصرية ، وكان الرافعي الشاعر ماضياً في الشعر على سنته ، لا يعرف له أحد مذهباً غير الشعر ؛ فلما نشر مقالته المشهورين في (الجريدة) ينقد بهما أساليب الأدب في الجامعة ، تنهت إليه العيون ؛ فلما أنشأ كتابه تاريخ آداب العرب في سنة ١٩١١ ، عرف الأدباء الرافعي العالم المؤرخ الراوية ، وعرفه طه حسين الطالب بالجامعة .

أفكان الطالب طه حسين يرشح نفسه من يومئذ ليكون أستاذ الأدب بالجامعة ، فنفس على الرافعي أن يؤلف كتاباً في تاريخ آداب العرب ، فكتب ينقده ويقرر أنه لم يفهمه ، ثم يقرره ثانية في نقد « حديث القمر » وثالثة في « رسائل الأحران » ؟ الحق أن الرافعي كان يطمع في أن يكون إليه تدريس الأدب في الجامعة منذ أنشئت الجامعة ، وقد كشف عن رغبته هذه في مقالته بالجريدة ؛ ولكن طه يومئذ كان طالباً في الجامعة ؛ فمن الإسراف في المزاح أن ننسب ما كان بينهما من بعد إلى النفاسة أو المنافسة على كرسى الآداب في الجامعة ؛ ولكنه صدر من تاريخ هذه الخصومة الأدبية لا بد من الإشارة إليه !

وثمة حديث آخر يشير إلى أوّل ما كان بين الرافعي وطه ، أذكرني صديقنا الأديب عبد المعطي المسيري ، صاحب « في القهوة والأدب » . قال :

« زار الرافعي إدارة (الجريدة) مرة لبعض شأنه ، في سنة ١٩٠٨ (أوسنة ١٩٠٩) ؛ فلما هم أن ينصرف طاف بمحرري (الجريدة) يمجّهم — وبينهم طه حسين — ولكن الذي كان يصحب الرافعي في طوافه لم يعرفه طه ، ولم يقدم أحدهما للآخر ؛ وعرفه

الرافعي على الرغم من ذلك ؛ إذ كان مثله لا يخفى واسمه على جبينه ولكنه لم يحيه ولم يُظهر له المعرفة ؛ رعاية لمُحافظته، وخشية أن يفهم طه أن الرافعي لم يعرفه إلا بعلته التي يتميز بها ، فيألم وتتأذى نفسه ؛ ولكن طه طوى صدره على شيء للرافعي من يومئذ ؛ لأن الرافعي انصرف دون أن يحيه كما حيا زملاءه العاملين معه في الجريدة ! » .

ونفخت السياسة الأسبوعية في الأدب روحاً جديدة ، واتخذت لها أسلوباً في الدين وفي العلم وفي الأدب ، قال عنه جماعة من الأدباء : إنه إلحاد وكفر وضلال . وقالت طائفة : إنه المذهب الجديد في الدين والعلم والأدب . ثم مضت السياسة بما تكتب وبما تفسح من صدرها للكتاب ، تقسم الأدباء إلى فرق وممسكرات ، وقديم وجديد ، ورفعت في الجهاد راية ...

والرافعي رجل — كان — فيه عصبية للدين ، وعصبية للقديم ؛ فأيقن منذ قرأ العدد الأول من السياسة الأسبوعية أن سيكون له شأن مع السياسة وكتاب السياسة في غد ...

ونال الرافعي رشاش من بعض المعارك وإنه لبعيد عن الميدان ، فأحس في نفسه رغبة في الكفاح فتحفز للوثبة ...

ودسّ كلمةً إلى طه يذم أسلوبه بما يشبه المدح ، ويعيب عليه التكرار وضيق الفكرة ، فنشرها طه في السياسة قبل أن يستبين مغزاها وما ترمي إليه ... ثم عرف ...

وتهيات أسباب الحرب ولم يبدأ أحد بالعدوان ... وتربص الرجلان في انتظار السبب المباشر لبدء المعركة ...

ثم أصدر الرافعي رسائل الأحران ، فسمى راجلاً إلى دار السياسة ليهدى إليها كتابه . وهناك التقى الرافعي وطه حسين وجها لوجه ... ونظر الرافعي إلى طه ، واستمع طه إلى حديث الرافعي ، وتصافح الحصان قبل أن يصعدا إلى حلبة

المصارعة ، ونفخ الدكتور هيكل في صفارة الحكم ، وبدأت المعركة . وكانت مشادة حادة خرج الرافعي يتحدث عنها وصمت طه لمن ياترى كانت الغلبة ؟ الرافعي يقول : أنا ... وطه لا يتكلم ، والدكتور هيكل ضنين بالحديث

ومضت فترة ، ثم نشر طه حسين رأيه في رسائل الأحران في السياسة الأسبوعية ، فرفع راية العداة وأعلن الحرب . ورد عليه الرافعي يقول :

« يسلم عليك النبي ويقول لك :

وكم من عائب قولاً صحيحاً وآفته من الفهم السقيم »

ثم مضى في رده يهزأ ويسخر ويتجنى ويتحدى ، في مقال طويل^(١) . وطارت الشرارة الأولى فاندلعت السنة النار ، فاختدت حتى أحدثت أزمة وزارية ، وأنشأت جفوة بين سعد وعدلى ، وأوشكت أن تؤدي بعلى ماهر إلى المحاكمة ، وهزّت دوائر البرلمان ، ثم انتهت في النيابة العمومية ...

لم تكن بداية هذه المعركة تنذر بما آلت إليه ، فما كانت في أولها إلا خصومة بين مذهبين في الأدب وأسلوبيين في الكتابة ، فالتبت من بعد أن استحوالت إلى حرب شعواء يتقاذف فيها الفريقان بألفاظ الكفر والضلال والإلحاد والغفلة والجمود ؛ وانتقلت من ميدان الأدب واللغة إلى ميدان الدين والقرآن ، ثم إلى ميدان السياسة والحكومة والبرلمان ، ثم إلى ميدان القضاء . والدكتور طه رجل لا تستطيع أن تفرق بين مذهبه في الأدب ومذهبه في الدين ، ولا بينهما وبين مذهبه في السياسة . والرافعي رجل كان لا يفرق بين الدين والأدب ، ولا يعرف شيئاً منهما ينفصل عن شيء أو يتميز منه ، ولكنه في السياسة كان يتحلى بفضيلة الجهل التام ، فلا تعرف له رأياً في السياسة تؤاخذ به أو تناقشه فيه ، لأنه كان لا يعرف من السياسة إلا حادثة اليوم بأسبابها ، لا بأصحابها ؛ وكم جرّ عليه هذا

الجهل السياسي من متاعب ! وكم أُلصق به من تهم ! ولكنه هنا كان من عوامل توفيقه في هذه المعركة .

في سنة ١٩٢٥ كانت الحكومة للأحرار الدستوريين ولأصدقائهم . والأحرار الدستوريون حزب طه حسين ، نشأ بينهم ووقف قلمه على الدعاية لهم . فلما رأى على ماهر باشا - وزير المعارف يومئذ - أن يضم الجامعة المصرية إلى وزارة المعارف ، انضم معها الدكتور طه أستاذ الأدب العربي بالجامعة ؛ على شرط الواقف ! ومضى الدكتور طه يحاضر طلابه في كلية الآداب محاضرات في الأدب الجاهلي ، على الأسلوب الذي رآه لهم ؛ فلما استدار العام جمع طه محاضراته في كتاب أخرجته للناس باسم « في الشعر الجاهلي » ؛ وقرأ الناس كتاب الدكتور طه حسين بعد أن سمعه طلابه منجّماً في كلية الآداب ، فقرأوا رأياً جديداً في الدين والقرآن رجع ما كان عندهم ظناً بالدكتور طه حسين وكتب السياسة الأسبوعية . فقال الأكثرون من القراء : هذا كفر وضلال . وقالت طائفة : هو خطأ في الفكر وإسراف في حرية الرأي . وقال الأقلون : بل هو الأسلوب الجديد لتجديد الآداب العربية وتحرير الفكر العربي . وظل الرافعي ساكناً ؛ إذ لم يكن قرأ الكتاب بعد ، فأنبهه إلى خطره إلا مقالان نشر أحدهما الأستاذ عباس فضل القاضي ، في السياسة الأسبوعية ، وكتب ثانيهما الأمير شكيب أرسلان في كوكب الشرق ؛ فكان فيهما الإنذار للرافعي بأنه قد آن أوانه ...

وامتضى الرافعي قلمه وكتب مقاله الأول فبعث به إلى جريدة « كوكب الشرق » ، ثم مقالات ثلاثاً بعده ، ولم يكن قد قرأ الكتاب ولا عرف عنه إلا ما نشرت الصحف من خبره ؛ فكانت المعركة بذلك في ميدانها الأول : خصومة بين مذهبين في الأدب وفي الكتابة وفي طرائق البحث . على أن الرافعي لم ينس في هذه المقالات أن له ثأراً عند طه ، فجعل إلى جانب النقد الأدبي في هذه المقالات شيئاً من أسلوبه

المرة في النقد ، ذلك الأسلوب الذي لا يريد به أن يفهم أكثر مما يريد أن يثار وينتقم .

ثم تلقى كتاب الدكتور طه حسين فقراه ، فثارت نأثرته لأمر جديد ... لقد كان شيئاً منكراً أن يزعم كاتب أن له الحق في أن يتجرد من دينه ليحقق مسألة من مسائل العلم ، أو يناقش رأياً من الرأى في الأدب ، أو يمحص رواية من الرواية في التاريخ . لم يكن أحد من كتاب العربية ليترخّص لنفسه في ذلك فيجعل حقيقة من حقائق الدين في موضع الشك ، أو نصاً من نصوص القرآن في موضع التكذيب ؛ ولكن الدكتور طه قد فعلها وترخّص لنفسه ، ومنح نفسه الحق في أن يقول قالةً في القرآن وفي الإسلام وتاريخ الإسلام ؛ وقرأ الرافى ما قال طه ، فغضب غضبته للدين والقرآن وتاريخ المسلمين ، ونقل المركة من ميدان إلى ميدان ...

وكان طه في أول أمره عند الرافى كاتباً يزعم أن له مذهباً جديداً في الأدب ، فعاد مبتدعاً مُضلاً له مذهب جديد في الدين والقرآن ؛ فكما ترى البدوى الثائر لعرضه أن يُنتَهك ، كان الرافى يومئذ ؛ /فضى يستمدى الحكومة والقانون وعلماء الدين أن يأخذوا على يده ويمنعوه أن تشيع بدعته في طلاب الجامعة ... وترادفت مقالاته نأثرة مهتاجة تفور بالغيظ وبالحمية الدينية وبالعصية للإسلام والعرب ، كأن فيها معنى الدم !

ونسى في هذه المقالات كل اعتبار مما تقوم به الصلّات بين الناس ، فما كان يكتب نقداً في الأدب ، بل يصب لهيباً وحماً وقذائف لا تُبقي على شيء . وكان ميدانه في جريدة كوكب الشرق ، وكوكب الشرق يومئذ هي جريدة الأمة ، وجريدة سعد ، وجريدة الشرق العربى كله ؛ فمن ذلك لم يبق في مصر قارى ولا كاتب إلا صار له رأى في طه حسين وفي دينه ، وإن للأمة من قبل رأياً في وطنيته ومذهبه ، وحسبك بها من وطنية في رأى الشعب ، وطه حسين

هو عدو سعد .

ووقفت الدوافع السياسية إلى جانب الرافعي تؤيده وتشدّ أزره ، وإن لم يكن له في السياسة باع ولا ذراع .

وبلغت الصيحة آذان شيوخ الأزهر ، فذكروا أن عليهم واجباً للدفاع عن الدين والقرآن فجمعوا جماعتهم إلى جهاد .

وتساوقت الوفود إلى الوزارة تطلب إليها أن تأخذ طه بما قال ؛ وإن طه لأثير في وزارة الأحرار الدستوريين وأصدقائهم ؛ ولكنها لم تستطع أن تتجاهل إرادة الرأي الإسلامي العام ...

ومضى الرافعي في حملته تؤيده كل القوى وتشدّ أزره كل السلطات .

ونشطت النيابة العمومية لتنظر في شكاوى العلماء وتحدد الجريمة وتقرح العقاب ، فعرف الدكتور طه حسين أن عليه وقتئذ أن يقول شيئاً ، فكتب كتاباً إلى مدير الجامعة يشهده أنه مسلم يؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ... ولكن الرافعي لم يقنع فمضى في النقد على جادته !

ولم تجد الجامعة في النهاية بُدّاً من جمع نسخ الكتاب من المؤلف ومن المكتبات لمنع تداوله ، لعل ذلك يرد الفتنة التي توشك أن تعصف بكل شيء حتى بالجامعة ، ولكن الرافعي لم يقنع فاستمر في حملته على الدكتور طه حسين ؛ ولا ظهير له يومئذ غير الدكتور زكي مبارك ... !

ليس من شأنى أن أنص الحكم في هذه القضية ، فإن وثائق الدعوى ما تزال بين أيدي القراء ، وليس يهمنى لمن كانت الغلبة ؛ فهذا كتاب للرواية لا للرأى ؛ ولكن الذى يجب أن يعرفه القراء ، هو أن الدكتور طه حسين لم يحاول الدفاع عن نفسه إلا دفاعاً سلبياً ، فأوى إلى الصمت ؛ ويزعم الدكتور زكي مبارك « أن الدكتور طه حسين كان معقول القلم واللسان — في هذه المعركة — بفضل الإشارات التي صدرت إليه بأن يترك العاصفة تمر ، حتى لا يهزم أنصاره أمام الحكومة وأمام البرلمان ! » . وهو قول لا أدرى أيقصد به الدكتور زكي مبارك أن ينتصر لظه أو للرافعي ؛ ولكنه قول صديق عاقل على كل حال ... !

لقد كانت هذه المقالات التي ينشرها الرافي في كوكب الشرق صحيفة مدوية وصلت إلى كل أذن ؛ فما أحسب أحداً في أدباء العربية وقراءها قد فاته منها شيء . لقد كان المصريون وقتئذ مكرومة أفواههم عن السياسة والحديث في شئونها ؛ فلعلمهم وجدوا في هذه المقالات ما يعزيمهم عن شيء بشيء ، إذ كان طه عندهم يومئذ ما يزال هو طه حسين عدو سعد ، ومحرر جريدة السياسة ، وعضو الأحرار الدستوريين ... !

لا أزعج أن اهتمام الناس جميعاً في مصر بهذه المقالات لأنهم جميعاً قد صار لهم في شئون الأدب رأى ، أو لهم في الذود عن الإسلام حمية ، لا ؛ ولكنه نوع من التمصب السياسي جاء اتفاقاً ومصادفة في الوقت نفسه ، ليكون تأييداً لبقول الله وانتصاراً لكلامته ؛ على أن هذه المقالات بإقبال الناس عليها — بسبب أدبي أو لسبب سياسي — قد بعثت روحاً دينية كانت راقدة ، وأذكت حمية كانت خامدة ، وألقت قلوباً إلى قلوب كانت متنافرة ، ونهت طوائف من عباد الله كانت أشتاتاً لتعمل للذود عن دين الله .

وإني لأذكر مثلاً مما كان من إقبال الناس على هذه المقالات ، أنني — وكنت طالباً — لم أكن أطيق الانتظار حتى يجيء بائع الصحف إلى الحى الذى أسكنه لأخذ منه كوكب الشرق ، بل كنت وجماعة من الطلاب نستعجل فنقطع الطريق من (المنيرة) إلى (باب اللوق) راجلين لنشتري من الأعداد المبكرة المسافرة إلى حلوان ، لنقرأها قبل أن يقرأها الناس .

وتطورت السياسة المصرية ، وتخلي زيور باشا عن الحكم ، وعادت حكومة الشعب يؤيدها برلمان سعد ، وعكف نواب الأمة على تراث الحكومة الماضية يفتشون عن أخطائه ، وما يزال في آذانهم صدى برن عمما كان من أمر الجامعة وأمر طه حسين ، فأبدي البرلمان رغبته في محاكمته . وقال النواب : نحن نريد . وقالت الحكومة : وأنا لا أريد . وتشاد عدلى رئيس الحكومة وسعد رئيس

النواب ؛ فهبت زوبعة ، ونشأت ضجة ، وحدثت أزمة وزارية ، ولوَّح عدلى بالاستقالة ، وأصر سعد على وجوب تنفيذ رأى الأمة ، وتمعدت المشكلة ...
وسمى الوسطاء بالصلح بين الزعيمين ؛ فما كان الحل إلا أن يتقدم النائب الجليل السيد عبد الحميد البنان بشكواه إلى النيابة العمومية ؛ فتسقط التبعة عن الحكومة ، وينفذ رأى الأمة ، ثم تسير القضية إلى غايتها أمام القضاء ، وكان بعد ذلك ما كان وإذ كان انضمام الجامعة إلى وزارة المعارف عملاً من أعمال وزير المعارف ، فإن ماثار حول الجامعة بسبب الدكتور طه حسين قد دعا نائباً أو نواباً إلى اقتراح محكمة على ماهر باشا بما فعل للجامعة ، وبما غير من نظام التعليم العام من غير أن يكون ذلك من حقه الدستوري ... ولكنه ظل اقتراحاً لغير التنفيذ .

ليست كل هذه الحوادث من تأليف الرافعي ، ولكنها شيء يتصل بتاريخه وله أثر فيه أى أثر ؛ فلولا ما كان من الخصومة بين الرافعي وطه ، لما قامت هذه الضجة ، ولا ثارت هذه الثائرة ، ولما كان فى التاريخ الأدبى أو السياسى لهذه الحقبة شيء مما كان .

على أن هذه المعركة قد خلفت لنا شيئاً أغلى وأمتع ، ذلك هو كتاب : « المعركة تحت راية القرآن » ، وهو جماع رأى الرافعي فى القديم والجديد وهو أسلوب فى النقد سنتحدث عنه بعد

وقد ظلت الخصومة قائمة بين الرافعي وطه إلى آخر أيامه ، بل أحسبها ستظل قائمة ما بقيت العربية وبقى تاريخ الأدب ؛ فما هى خصومة بين شخص وشخص تنتهى بنهايتهما ؛ بل هى خصومة بين مذهب ومذهب سيظل الصراع بينهما أبداً مادام فى العربية حياة وقدرة على البقاء

وما أعرف أن الرافعي وجد فرصة ليفمزطه فى أدبه ، أو وجد طه سانحة لينال من الرافعي فى فنه ومذهبه ، إلا أفرغ كل منهما ما فى جعبته . وكم مقال

من مقالات طه حسين قرأه على الرافعي فقال : اسمع ، إنه يعني . وكم مقال أملاه على الرافعي أو قرأته له فوجدت فيه شيئاً أعرف من يعنيه به . ومرة أو مرتين قال الأستاذ الزيات صاحب الرسالة للرافعي : أرجو أن تعدّل في أسلوب هذا المقال - مما ينشر في الرسالة - فإني لا أحب أن يظن طه أنك تعنيه بشي تنشره في الرسالة وعلى تبعته عنده

ولما ثارت في الجامعة مسألة المسجد والمصلي والدروس الدينية وفصل الفتيان عن الفتيات ، قبيل موت الرافعي بأشهر ، كتب مقالاً للرسالة غمز فيه طه وحيًا شباب الجامعة ، ولم يجد صاحب الرسالة بُدأ من نشره . وفتن الرافعي بمقاله ذاك وحسن عنده وقعه ، فأنشأ تنمة له بعنوان « شيطان وشيطانة » يغمز بها الدكتور طه حسين ، ولكن صاحب الرسالة وقف له واحتج حجة ، رعاية لصديقه القديم . وكان أول مقال يكتبه الرافعي فترده له الرسالة . وقد اغتاظ الرافعي لذلك غيظاً شديداً ، وأحسبه مات وفي نفسه حسرة منه ! لو كان لي أن أعرف أين أجد صورة هذا المقال لنشرته بحق التاريخ الذي لا يحابي الأحياء ولا الأموات ، ولكن أين أجده ؟ صاحب الرسالة يقول : لقد رددته إليه . والدكتور محمد يقول : لم أجده على مكتب أبي . وما كان بين هذا المقال وبين أجل الرافعي إلا قليل

ولم يتلاق الرافعي وطه وجها لوجه في النقد بعد هذه المعركة حول كتاب « في الشعر الجاهلي » ، ولكن المارك بينهما ظلت مستمرة من وراء حجاب ، تنتقل من ميدان إلى ميدان

ولما اشترك الرافعي في المباراة الأدبية في سنة ١٩٣٦ ، ونال في بعضها من الجائزة دون ما كان يطمع ، لم ينسب ذلك لشي إلا لأن طه كان عضواً في اللجنة ... وطه خصم عنيد ...

أما بعد فهذا شيء للتاريخ أثبتته على ما فيه ، ليس فيه رأي ولا رأي أحد مني ؛

ولكنه شئ مما حكاه لى الرافى أو قرأت فى كتبه ، فكتبته فى موضعه من هذا البحث بضمير المتكلم ومالى فيه إلا الرواية ، وذلك حسبى من العذر إن كان على معتبة أو ملام .

تحت راية القرآن

الجديد والقديم...! هنا ميدان الخصومة بين الرافى وأدباء عصره ؛ فمنذ نحله أديب منهم زعامة المذهب القديم فى مقال كتبه لمجلة الهلال سنة ١٩٢٣ ، نشط الرافى ليجاهد هذه الدعوة التى يدعون إليها بتقسيم الأدب إلى قديم وجديد ؛ إذ لم تكن هذه الدعوة عنده إلا وسيلة إلى النيل من العربية فى أرفع أساليبها ، وسبيلاً إلى الطعن فى القرآن وإعجاز القرآن ، وباباً إلى الزرابة بتراث الأدباء العرب منذ كان للعرب شعر وبيان . ومن ذلك اليوم نصب الرافى نفسه ووتف قلمه على تفنيد دعوى التجديد ؛ فجعل همه من بعد أن يتتبع آثار الأدباء الذين ينتسبون إلى الجديد ليرد عليهم ، ويكشف عن باطلهم . وما كان يرى فى عمله ذلك إلا أنه جهاد الله تحت راية القرآن ؛ فمن ذلك كان اسم كتابه الذى جمع به كل ما كتب فى المعركة بين الجديد والقديم ، من سنة ١٩٠٨ - ١٩٢٦ .

هو كتاب لم ينشئه ليكون كتاباً ، ولكنها مقالات تفرقت أسبابها واجتمعت إلى هدف واحد ، وكانت مرقاً مبعثرة فى عديد من الصحف والمجلات فجمها بين دفتى كتاب ، فاجتمع بها رأى الرافى فى القديم والجديد على اختلاف أسبابه ودواعيه وما كتب له ؛ على أنك لا تكاد تبلغ من صفحات هذا الكتاب إلى الصفحة المائة من أربعمائة ، حتى يخلو الميدان من كل أنصار الجديد إلا رجلاً واحداً هو الدكتور طه حسين بك ، ويتوجه إليه الخطاب والرد فى كل ما بقى من صفحات الكتاب ؛ فكأنما أنشأه الرافى وجمعه كتاباً للرد عليه هو وحده ، وكأنه هو وحده الذى يدعو إلى الجديد وينتصر له ويحمل رايته ؛ فإذا أوشكت أن تفرغ من الكتاب فرغت من الرافى ومن رايه ومن حديثه ، لتقرأ جلسة

من جلسات البرلمان رأسها سعد ويتداول الحديث فيها طائفة من النواب عن طه حسين ورأى طه حسين في الأدب وفي الدين وفي القرآن ، ويحتمد فيها الجدل بين حكومة عدلى وبرلمان سعد في شأن هو إلى الأدب أدنى منه إلى السياسة ؛ وإنها جلسة ممتعة خليقة بأن تكون في موضعها من كتب الأدب وتاريخ النقد الأدبي .

وليس الكتاب على استواء واحد في أسلوبه ؛ ففي المقالات الأولى منه تقرأ رأى الرافعى هادئاً مترناً فيه وقار العلماء وحكمة أهل رأى ورعاية صدر الناقد البرى ؛ فإذا وصلت من الكتاب إلى قدر ما ، رأيت أسلوباً وبياناً غير الذى كنت ترى ، وطالعتك من صفحات الكتاب صورة جَهْمَةٌ للرافعى الناثر المغيظ المحنق ، جاحظ العينين كأنما يطالب بدم مطلول ، مُزْبِدُ الشدقين كالجلج الهائج ، منتفخ الأنف كأنما يشم ربح الدم ، سريع الوِثاب كأن خصماً تراءى له بعد ما دار عليه طويلاً فهو يخشى أن يفر ، وهو هنا يعنى طه حسين وحده !

وليس عجيباً أن ترى هذين اللونين من النقد لأديب واحد بين دفتى كتاب ، فإن هذه المقالات وإن صوّبت إلى هدف واحد قد اختلفت دواعيها وأسبابها ومن كتبت له ، وقد كان بينها في التاريخ الزمنى سنوات وسنوات ، والكاتب المتجدد لا يثبت على لون واحد من عام إلى عام .

على أنك تقرأ للرافعى من هذا الكتاب رأيه في طريقة تدريس الأدب بالجامعة غداة تأليفها سنة ١٩٠٨ ، فتراه يدعو إلى مذهب جديد في تدريس الأدب ، وتقرأ له — من الكتاب نفسه — رده في سنة ١٩٢٦ على طه في طريقته الجديدة لتدريس الأدب ، فتراه ينكر عليه هذا الجديد ؛ فتعلم من هذا وذاك أن الرافعى لم يكن يعنى بمحلمته أن يناهض كل جديد ، بل كانت غايته أن يردّ إلى الأفواه كل لسان يحاول بدعوى الجديد أن يتنقص من القديم ليخلص من ذلك إلى النيل من لغة القرآن ولغة الحديث ومن تراث أدباء العربية الأولين

ليس يعينني هنا أن ألخص رأى الرافى فى الجديء والقديء ، فمراجع البءء عن رأيه فى ذلك واسعة مسءفبضة ، إءما قصدء إلى ءعرىف هذا الكءاب إلى قراء العربببة فى عرض موجز ووصف كاشف ؛ أما ما ءون ذلك فله من شاء من أهل الرأى والنظر ، وله منى غير هذا المجال من الءءبء .

والآن سأءبواز الفصول الأولى من الكءاب لأءءء عن أسلوبه فى ساءره ؛ وببءأ هذا الجزء من صفءة ١٠٤ ، وفبه ءفصبل ما كان ببن الراءى وطه بسبن منذ بءأت الءصومة بببهما ءول « رسائل الأءزان » إلى أن انءهء عند مجلس النواب ءول كءاب « فى الشعر الجاهلى » ، وهو فصول عدة ، فبها ألوان من النءء مءءلفة ، وأسالب فى الببان مءبانبه ؛ ففبها ءهكم المر ، وفبها الءجوم العنبف ، وفبها المصانعة والءبلة ، وفبها رءء الرأى بالرأى ، وفبها ءقربر الءقبة على أسالب من فنون النءء ، وفبها المراءغة ونصب الفءءاخ للالبقاع ، وفبها الوقبعة ببب فلان وفلان ، وفبها الزانى إلى فلان وفلان ، وفبها العلم والأءب والاطلاع الواسع العمبب ، وفبها شطط اللسان ومر الءبءاء ؛ وفبها فن بءبب طربف ، فبما ءكى الراءى عن كلبلة وءمنة ...

ولكن أكثر هذه الفصول بءرء على مءال واءء إذا أنء نظرت إلىه فى جمءه ، فببءأ كل فصل منها بأسلوب ألبم من ءهكم بفتن الراءى فبه فنوناً عببببة ءءى ببلع نصف المقال ؛ ثم بببل إلى طرف من موضوع الكءاب المنقوء ، فببناوله على أسلوب آءر هو أقرب الأمءلة إلى ما بببى أن بكون علىه النءء الأءبى ، لولا عباراء وأسالب هى لازمة من لوازم الراءى فى النءء إذا كان ببب و ببب من ببقءه ءأر ... ببلى إنها نموءب عال فى النءء العلمب الصءبب لولا ءلك العباراء وهذه الأسالب !

كليلة ودمنة

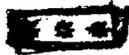
إن مبالغة الرافعي في التهم قد شقت له فنوناً من المعاني والأساليب ، لولا الناحية الشخصية منها لكانت نماذج لها اعتبار وقيمة في أدب الإنشاء ؛ وأبدع هذه الأساليب حديثه عن كليلة ودمنة وما نَحَلَّهما من الرأي فيما تناول من فنون الأدب . وكليلة ودمنة كتاب في العربية نسيج وحده ، لم يستطع كاتب من كتاب العربية أن يحاكيه منذ كان ابن المقفع ، إلا مصطفي صادق الرافعي . وكانت أول هذه المحاكاة اتفاقاً ومصادفة ، في مقالة من مقالات الرافعي في طه حسين ؛ إذ أراد أن يتهكم بصاحبه على أسلوب جديد ، فبث كليلة ودمنة ليقول على لسانهما كلاماً من كلامه ورأياً من رأيه ؛ فلما أتم تأليف هذا الفصل عاد يقرؤه ، فإذا هو عنده يكاد من دقة المحاكاة وقرب الشبه أن ينسبه - على المزاح - إلى ابن المقفع فلا يشك أحد في صدق روايته ، فنشره بعد ما قدم له بالكلمة الآتية : « عندي نسخة من كتاب كليلة ودمنة ليس مثلها عند أحد ... ما شئتُ من مثل إلا وجدته فيها ؛ وقد رجعتُ إليها اليوم فأصبتُ فيها هذه الحكاية ... »

« قال كليلة : أمّا تضرب لي المثل الذي قلت يا دمنة ؟ قال دمنة : زعموا أن سمكة في قدر ذراع ... » ومضى في اختراعه وتهكمه حتى انتهى إلى رأى دمنة في الدكتور طه حسين (١) ... »

ثم استمر ينقل عن (نسخته الخاصة) من كليلة ودمنة ما يجعله مقدمة القول للتهكم فيما يلي من مقالات في الرد على الدكتور طه حسين ، فنشر منها ثمانية فصول طريفة ممتعة في كتاب المعركة . وإن قارى هذه الفصول الثمانية ليرى فيها لوناً طريفاً من أدب الرافعي ، لو أن الظروف واثته لأتمه فأنشأ به في العربية إنشاءً جديداً له خطر ومقدار . على أن الرافعي لم يكن يقصد أول ما قصد أن يتمه كتاباً ، إنما دفعه إلى إنشاء هذه الفصول السبعة بعد الفصل الأول ، ما لقي من استحسان

القراء لهذا اللون الجديد من أساليب التهمك في النقد ؛ وأحسب أن الدكتور طه حسين نفسه كان معجباً بهذه الفصول الثمانية من كلية ودمنه مع ما يناله فيها مما يؤلم ويسىء ، كما كان يعجب (فلان) بما ينشر له من الصور الرمزية الساخرة لأن فيها فناً ومقدرة ... !

وانتهى الرافعي من حديث كلية ودمنه بعد انتهاء هذه المعركة ، وظلَّ مهملاً (نسخته الخاصة) ست سنين بعد ذلك ، حتى تذكرها في سنة ١٩٣٣ في إبان المعركة بينه وبين العقاد حول « وحي الأربعين » ، فنشر الفصل التاسع منها في البلاغ بعنوان « الثور والجزار والسكين » . ثم نشر في الرسالة سنة ١٩٣٥ الفصل العاشر بعنوان « كفر الذبابة ! » يعنى بها مصطفى كمال وحركته الدينية ، غفر الله له ! وقد كان في محبة الرافعي أن يتم هذه النسخة من كلية ودمنه يعارض بها كتاب ابن المقفع أو يتمه ، ولكنه لم يوفق ، وكان في ذلك خير ؛ فهذه الفصول في موضعها من الكتب التي نشرت بها أجمل وأخف ، وإفرادها بالنشر يحملها على تكلف الصنعة ويباعد بينها وبين أذواق القراء . على أن هذه الفصول لا اتصال بينها في موضوعها بحيث تصلح للنشر متساوقة متتابعة كما تتساوق الفصول والأمثال في كتاب ابن المقفع .



هذا مجمل الرأي وملخص الموضوع في كتاب المعركة تحت « راية القرآن » وما احتواه . وهو وكتاب « على السفود » خلاصة مذهب الرافعي في النقد وأسلوبه في الجدل ؛ وفيهما أشلاء المركبتين الطاحتين بينه وبين طه وبينه وبين العقاد ، بدمائهما ، ورمائمهما ، ولهيهما المستعر ، ودخانهما الخانق ، وغبارهما الكثيف ... لو تجرد هذان الكتابان من بعض ما فيهما لكانا خير ما أنتجت العربية في النقد ، وأحسن مثال في مكافحة الرأي بالرأي مع الاطلاع الواسع والفكر الدقيق . ولكن وأسفاه، إن الإطار يحجب ما في الصورة من جمال ، فنذا - غير مالك الصورة - يستطيع أن يحطم هذا الإطار ليجلوا الصورة في جمالها على أعين الناس ؟

شاعر الملك

وهذا فصل آخر مما يتصل بموضوع الحديث عن الرافعي في النقد ؛ إذ كان هو أول ما بين الرافعي والأستاذ عبد الله عفيفي ؛ فإني لأقدم به للقول عن خبر ما كان بينهما من الخصومة التي مهّدت للرافعي من بعد أن ينشئ كتابه (على السّفود) في نقد ديوان العقاد .

في سنة ١٩٢٦ كان ناظر الخاصة الملكية ، هو المرحوم محمد نجيب باشا ، وكانت السياسة المصرية تسير في طريق ذى عوج ، مهّد لطائفة من رجال الحكم والسياسة أن ينشئوا حزباً ينسبون إليه الولاء للقصر ، فهينوا لطائفة غيرهم من السياسيين أن يزعموا أنهم أولياء على حقوق الشعب ، حراس على سلطة الأمة ؛ فنشأت بذلك قوة بإزاء قوة ، وتناظر سلطان وسلطان ، وكان لكل طائفة لسان وبيان ...

في تلك الآونة ، تقدم المرحوم محمد نجيب باشا إلى الرافعي أن يكون شاعر الملك ، فلقى ذلك العطف الكريم بحقه من الشكر والرضا وعرفان الجميل .
وشاعرُ الملك أو شاعرُ الأمير لقب قديم في دولة الأدب ، وله في تاريخ العربية تاريخ ، منذ كان النابغة والنعمان ، وزهير وهرم بن سنان ، والأخطل وبنو أمية ، والنواسي وأبو العتاهية في بني العباس ، والبحترى في إمارة التوكل ، والمتنبى في بلاط سيف الدولة ؛ إلى شعراء وملوك لا يحصيهم العدّ ، ولا نفس في تاريخ مصر الحديث أن نذكر الشاعرين : أبا النصر ، والليثي ، وليس بعيداً عنا أمير الشعراء المرحوم شوقي بك « شاعر الحضرة الفخيمة الخديوية » ، وقد كان من الولاء والحب لمولاه بحيث لم تظمن السلطة الحاكمة إلى بقائه في مصر بعد خلع الخديو عباس فنفته إلى الأندلس .

ولقد كان شاعر الملك قبل الرافعي هو الشاعر المرحوم عبد الحليم المصري ؛

فلما مات تطلعت الشعراء إلى موضعه ؛ وكان أكثرهم زلفى إلى هذا المنصب هو المرحوم حافظ إبراهيم ، إذ كان ما يزال في نفسه شيء يهفو به إليه ، مما كان بينه وبين شوقي من المنافسة الأدبية في صدر أيامه على رتبة شاعر الأمير .

وعاد الرافعى إلى الشعر بعد هجر طويل ؛ إذ كان آخر ما نشر من الشعر هو ديوان النظرات في سنة ١٩٠٨ ، ثم لم يقل بعده إلا قصائد متفرقة في آحاد متباعدة ، لحادثة تبعت لها نفسه ، أو خبر ينفع به جنانه . وكان أكثر ما قال الشعر بعد ذلك ، في سنة ١٩٢٤ ، في إبان العاصفة الهوجاء من حبّ فلانة ، وأكثر شعره عنها منشور في كتبه الثلاثة التي أنشأها للحديث عن هذا الحب ؛ ثم انبعث البلبل ينشد أهازيجه من جديد ، على السريحة الفيئانة في حديقة قصر الملك ، فصفت إليه القلوب وأرهفت له الأذان ...

واستمر يرسل قصائده في مدح الملك لمناسباتها ، من سنة ١٩٢٦ إلى سنة ١٩٣٠ ، حتى وقع بينه وبين الإبراشى باشا أمر — بعد موت المرحوم نجيب باشا — فسكت ، وعاد ما بينه وبين الشعر إلى قطيعة وهجران ، بعد ما أنشأ الخصومة بينه وبين عبد الله عفيفى ...

وقصائد الرافعى في مدح الملك فؤاد نظام وحدها في شعر المديح : تقرأ القصيدة من أولها إلى آخر بيت فيها ، فتقرأ قصيدة في موضوع عام من موضوعات الشعر ، ليس من شعر المديح ولا يمت إليه ؛ فلولا بيتان أو أبيات في القصيدة الخمسينية أو السبعينية يخص بهما الملك ويمدحه ، لما رأيتها إلا قصيدة من باب آخر ، تسلكها فيما تشاء من أبواب الشعر إلا باب المديح . اقرأ قصيدة الخضراء — معنى الراية — وقصيدة الصحراء في رحلة الملك إلى الحدود الغربية ، وقرأ غيرها ؛ فإنك واجد فيه هذا الذى ذكرت ، وواجد فناً في الشعر تعرف به الرافعى في المديح فوق ما عرفت من فنونه ؛ فإذا حققت هذه الملاحظة في مدائح

الرافعي وثبتت عندك ، فارجع إلى تاريخ هذه الفترة من السياسة المصرية ثم التمس لها تفسيراً من التفسير ، أو فارجع إلى تاريخ الرافعي نفسه واذكر ما تعرف من أخلاقه تعرف تفسيرها ومعناها

لقد كان الرافعي يجهل السياسة جهلاً تاماً ، ولكن كانت فيه أخلاق السياسي ناضجة تامة : من الاحتيال ، والروغان ، وحسن الإعداد للتخلص عند الأزمة . كلى كانت له أخلاق السياسيين في إبداع الحيلة والاستعداد للمخرج ، ولكن لم يكن له في يوم من الأيام هوى مع أحد من أقطاب السياسة ، أو يعرف له رأياً فيها ، أو يدري من خبرها أكثر مما يدري رجل من سواد الناس يقرأ جرائد المتطرفين والمعتدلين على السواء .

ولم يكن للرافعي أجر على هذا المنصب في حاشية الملك ، إلا الجاه وشرف النسب ، وجواز مجاني في الدرجة الأولى على خطوط سكة الحديد ، ودلال وازدهاء على الموظفين في محكمة طنطا الأهلية ، حيث كان يعمل جنياً إلى جنب مع مئات من الكتبة والمحضرين وصغار المستخدمين ... !

ولكنه إلى ذلك قد أفاد من هذا النسب الملكي فوائد كبيرة ؛ فقد تعطف الملك الكريم فأمر بطبع كتاب (عجاز القرآن) على نفقته ؛ كما أذن بإرسال ولده محمد في بعثة علمية لدراسة الطب في فرنسا ؛ فظل يدرس في جامعة ليون إلى سنة ١٩٣٤ على نفقة الملك ، حتى شاء الإبراشي باشا لسبب ما أن يقطع عنه المعونة الملكية ولم يبق بينه وبين الإجازة النهائية غير بضعة أشهر ، فقام أبوه بالإفراق عليه ما بقي . ومن أجل ما كان يرسل إلى ولده كل شهر في فرنسا من نفقات العيش والجامعة ، كان يعمل في (الرسالة) بأجر ، وإن عليه من أعماله الخاصة ما ينوء به جسده وتنتهك أعصابه ... !

قلت إن الرافعي ظل في حاشية الملك فؤاد إلى سنة ١٩٣٠ ثم كان بينه وبين

الابراشي باشا أمر — بعد موت المرحوم نجيب باشا — فسكت ؛ إذ خشي أن تعصف به السياسة أو تعبت به الدسائس فترى به إلى تهلكة ...

حدثني الرافي قال : « كنت في عهد نجيب باشا أذهب إلى القصر فيلقاني بوجه طلق ، ويحتقني بي ، ويبسط لي وجهه ومجلسه ، ويثلج صدري بما يروى لي من عطف الملك ورضاه ؛ فما أغادر القصر إلا وأنا أشعر كأن نفسي تزداد عمقاً وتمتد طولاً وتنبسط سعة ؛ ثم جاء الابراشي فلم تدعني داعية إلى لقائه ، حتى كان يومٌ وجدته فيهِ منطلقاً إلى هناك ، لأسأله في أمر من الأمور^(١) ...

قال : « وذهب إليه الساعي بالبطاقة ودعاني إلى الانتظار ، فجلست وما أظن إلا أنها دقائق ثم أُدعيت إليه ... وطال بي الانتظار ، ومضت ساعة ، وساعة ، وساعة ، وأنا في هذا الانتظار بين الصبر والرجاء ؛ وحوالي من ذوى الحاجات وجوه عليها طوابع ليس على وجهي منها ، ونظرت إليهم وإلى نفسي فضجرت ، فعدت أستأذن عليه وقد جال بنفسي أنه قد نسي مكاني ، فعاد إلى حاجبه يقول : الباشا يعتذر إليك اليوم ، ويسألك أن تمر به غدأ في الساعة كذا ...

قال الرافي : « وآذاني ذلك ونال مني ، ولكنني اعتذرت عنه . فلما كان الغد جاءني النبا ينعي إلى زَيْنَ الشَّبابِ المرحوم أمين الرافي بك ؛ فأذني الهمُّ وثقل عليّ ، وضائق نفسي بما فيها ، وتوزعتني الوسوس والآلام ؛ وما نسيت وأنا أمشي في جنازة الفقيد العظيم أن عليّ موعداً بعد ساعات ، فما هيل عليه التراب حتى كنت في طريق عدوياً إلى القصر وفاء بالوعد الذي اتَّعدتُ ، وجعلت من وراء ظهري ما عليّ من واجب المجاملة لمن جاءوا يعزُّونني في أخي وابن عمي وصاحب الحقوق عليّ . لقد كان الذي مات زعيماً من زعماء الوطنية له مقداره ، ولكنني جعلت الوفاء بالوعد فوق ما عليّ من الواجب للزعيم الذي مات ؛ وإنه لأخي ، وإن في أعراقه من دمي وفي أعراقي ... !

قال : « ووقفت بالباب أنتظر أن يؤذن لي فأدخل ، وطال بي الانتظار كذلك

(١) يأتي تفصيل ذلك بعد

وإنّ في دمي جمراتٍ تتهب . ومضت ثلاث ساعات وأنا في مجلسي ذلك أطلع
وجوه الداخلين والخارجين في غرفة الباشا ولا يؤذن لي ... !

قال الرافعي : « وهاجت كبريائي وثارت حماقتي ... لا أكذبك يا بني ، إن
فيّ لحماقة . ولكن ... إن صرامة عمر بن الخطاب قد انحدرت إليّ في أصلاب
أجدادي من النسب البعيد ؛ ولكن صرامة عمر حين انحدرت إليّ صارت حماقة .
إن هذه الحماقة عندي يا بني هي تلك البقية من صرامة عمر ، بعد ما تخطت إليّ
هذا الزمن البعيد في تاريخ الأجيال ... !^(١) »

قال : « ولما بلغ الحق بي مبلغه نهضت وفي يدي عصاي ، فتقدمت إلي الباب
خطوة فدفعته بالعصا وأنا مغيب محقق ، فإذا أنا أمام الإبراشي باشا وجهاً لوجه ،
وإلى جانبه رجل أوربي يحدّثه ... ، فلم أعبأ ، ولم أكرث ، ولم أذكر وقتئذ أن
موضعي وموضعه ، فقلت ما كنت أريد أن أقول ، وانتصفت لنفسي ، وثارت
لكبريائي . وأحسبني قد خرجت يومئذ عن حدود الأدب اللائق في الحديث معه ،
ولكنني لم ألق بالألّ إلى شيء من ذلك . وما كان في نفسي إلا أنني قد قلت ما ينبغي
أن أقول لأحفظ كرامتي وأصون نفسي ، ولا علىّ بعد ذلك من غضبه أو رضاه ...
» ولكن ... ولكنه مع ذلك لم يغضب ، ولم يعتب ، بل اعتذر إليّ وألح
في الاعتذار ... وصدقته حين ابتسم ... ! »

وأسرّها الإبراشي باشا في نفسه ؛ فلما كان الموسم التالي نظم الرافعي قصيدته
وأرسل بها إلى القصر ، ورصفت حروفها مشكولة في مطبعة دار الكتب - كما
جرت العادة - ثم أرسلت بحروفها مجموعة إلى الجريدة المختارة ، ومعها قصيدة
أخرى مرصوفة مشكولة مزينة ، من نظم الأستاذ عبدالله عفيفي المحرر العربي
يديوان جلاله الملك . ونشرت القصيدتان جنباً لجنب في جريدة واحدة ، وعلى نظام

(١) تشبه هذه الكلمة أن تكون هي كلمة الرافعي بنصها كما حكاها لي ، وقد كتبها
في مذكرتي بعد حديثه بساعات ، فالיום أنقلها من هذه المذكرة

واحد ، وكلاهما في مدح الملك ، فما يفرق بينهما في الشكل إلا توقيع الشاعرين في ذيل الكلام .

وقرأ الرافعي قصيدة منافسه الجديد ، فثار وزجر ، وقال لمن حوله : « أترون كيف يصنع بي ؟ إنه يريد أن ينال مني . (يريد الأبراشي) أهذا شعر يقرون إلى شعري ؟ أيراني وإياه على سواء ؟ أيحسب أن الأدباء سيخضعهم هذا الزخرف في الطباعة فيجعلون صاحبهم شاعراً من طبقتي أو يجعلونني شاعراً من طبقتهم ؟ أيراني من الهوان بمنزلة الذي يرضى عن هذا العبث ؟ أفيريد أن يمهد لصاحبه حتى يخلعني عن مرتبة « شاعر الملك » ليجعله مكاني ؟ أم يراه أهلاً ليقاسمني المنزلة والمقدار عند صاحب التاج ... »

ومضى الرافعي يومه يفكر ويقدر ، وما كان إلا في مثل حال الرجل الذي يعود إلى داره التي يملك فإذا له فيها شريك يحتلها بقوة ساعده لا بحقه ؛ فما يجد له حيلة في إجلائه عن الدار إلا أن يرفع أمره إلى القاضي ... وكان القاضي عند الرافعي في هذه القضية هو الرأي الأدبي العام ، فرفع أمره إليه ...

وتحدث بنيته إلى صديقه الأستاذ إسماعيل مظهر صاحب مجلة المصور ، فأوسع له صفحات من مجلته ليبدأ الحملة على الأستاذ عبد الله عفيفي في مقالات عنيقة صارخة بعنوان : على السّفود ! في لنتر ! في لنتر ! في لنتر ! في لنتر !

وما كان الرافعي يجهل أنه يتناول موضوعاً دقيقاً حين يعرض لنقد هذا الشاعر ؛ فإنه ليعلم علم اليقين أن هذه المقالات سيكون لها صدى بعيد ، تصل به إلى آذان لا يسره أن تعلم من كاتب هذه المقالات ، فتنكر وأخفى نفسه ...

الرافعي وعبد الله عفيفي

لم يكن الأستاذ عبد الله عفيفي خصماً للرافعي على الحقيقة ، ولا أحسب أن أحدها كان يرضيه أن يكون بينهما ما كان ولا سعى إليه ؛ ولكن عبد الله عفيفي في مكانه من ديوان جلالة الملك ، وفي موضعه عند الأبراشي باشا ؛ قد دارت به المقادير

دورها حتى وقفته مع الرافعي وجهاً لوجه ، وجملته بالموضع الذي لا يستطيع واحد منهما فيه أن يتجاهل أنه أمام خصم يحاول أن يظفر به . ومن هنا نشأت الخصومة بين الرافعي وعبد الله عفيفي .

على أن هذه الخصومة بينهما تختلف عن سائر الخصومات التي نشبت بين الرافعي وأدباء عصره ، فهنا لم تنشأ الخصومة إلا للتراحم على رتبة « شاعر الأمير » ؛ على حين كانت أكثر خصومات الرافعي ذيادةً عن الدين وحفاظاً على لغة القرآن ، فما كنت ترى فيها إلا التراشق بألفاظ الكفر والزيف والمروق والإلحاد ؛ أما هنا فكانت المعركة تدور وما فيها إلا التهمة بالغفلة وفساد الذوق وضعف الرأي وقلة المعرفة ... وما بدُّ من أن يكون في نقد الرافعي أحد هذين اللونين : الاتهام بالزيف ، أو الاتهام بالغفلة ، ولا ثالث لهما . ومن هنا فقط نستطيع أن نزعّم أن الرافعي لم يكن موقفاً في النقد ، مع أهليته واستعداده وإحاطته الواسعة وإحساسه الدقيق ؛ إذ كان أول ما ينبني أن يتصف به الناقد هو عفة اللسان والقصد في التهمة وضبط النفس ... !

وثمة شيء آخر يفرق بين هذه الخصومة وسائر الخصومات : هو أن المعركة كانت إيجابية من طرف واحد ، على حين ظل الطرف الثاني صامتاً قارناً في موضعه لم ينبس بكلمة ولم تبدر منه بادرة مشهودة للدفاع ...

كتب الرافعي مقالات ثلاثاً بعنوان «على السفود» في نقد ثلاث قصائد أنشأها عبد الله عفيفي في مدح الملك — والسفود هو الحديدية التي يشوى عليها اللحم — وهو عنوان له دلالاته ، وفيه الإشارة والرمز إلى ما حوت هذه المقالات من الأساليب اللاذعة والنقد الحامى . وإذ لم يكن توقيع الرافعي في ذيل هذه المقالات ولا كان يريد أن يعرف أنه كاتبها — فإنه خرج عن مألوفه في الكتابة وفي نمط الكلام ، فاسترسل ما شاء كأنه يتحدث في مجلسه إلى جماعة من خاصته ، لا يعنيه الأسلوب ولا جودة العبارة ولا عمريية اللفظ ، بقدر ما يعنيه أن يتأدى

معناه إلى قارئه في أي أسلوب وبأية عبارة؛ فكثير الحشو في هذه المقالات من الكلمات العامية، والنكات الدائمة، والأمثال الشعبية، ولكنه لم يستطع أن يتخلص من كل لوازمه في النقد والكتابة، فبقيت له خفة الظل وحلاوة اللفظ وقسوة النقد، إلى بعض عبارات في أسلوبه تم عليه وتكشف عن سره.

ولم يذكر الرافعي حين أنشأ هذه المقالات أنه يتناول بهذا النقد شاعراً من شعراء القصر له حظوة عند رئيس الديوان الملكي، وأن هذا الشعر الذي يفريه ويكشف عن عيبه إنما أنشأه ناظمه في مدح الملك. أو لعل الرافعي كان يذكر ذلك ولكنه يحسب نفسه بنجوة من التهمة لأنه لم يوقع بإمضائه على هذه المقالات؛ فلم يتحرج مما كتب وألقى القول على سجيته في صراحة وعنف وقسوة، ولم يصطنع الأدب اللائق وهو يتحدث عما ينبغي أن يكون عليه الشعر الذي يقال في مدح الملك وما لا ينبغي أن يقال، فجاء في بعض كلامه عبارات لا يسيغها الذوق الأدبي العام عند ما يتصل موضوع القول بالملك المحي الذي يحكم ويدين له الجميع بالولاء، وكأنما ركبته طبيعة غير طبيعته خيئت إليه أنه يكتب في نقد شاعر من الماضين يمدح ملكاً من ملوك التاريخ، فلم ينظر إلى غير الاعتبار الأدبي الخالص من دون ما ينبغي أن يراعى من التقاليد واللباقة السياسية عند الحديث عن الملوك ...

وانتهت أولى هذه المقالات إلى القصر، فالت الأفواه إلى الآذان، وتهامس القراء همساً غير خفي، ثم جهروا يتساءلون: من يكون هذا الكاتب؟ ولكن أحداً منهم لم يفتن إليه ولم يعرف الجواب، وأنفذوا دسيساً إلى الأستاذ إسماعيل مظهر صاحب المصور يسأله فلم يظفر منه بجواب.

ونُشر المقال الثاني والثالث، فلم يلبث أن انكشف السر؛ ونم الرافعي على نفسه بلسانه في مجالسه الخاصة ... أو نم عليه أسلوبه وطريقته في النقد.

وجاءه سائل من القصر يسأله ويستوثق من صحة الخبر في أسلوب السياسي البارع: «... وكيف تأذن لنفسك أن تقول ما قلت في شاعر من شعراء الملك

وأن تكتب عنه بهذا الأسلوب ؟ أفيتفق مع الولاء لصاحب العرش أن تكتب ما كتبت لتصرف الشعراء المخلصين عن ساحة الملك ... ؟ أم تريد ألا ينطق أحد بالثناء على صاحب التاج وألا يكون اسمه على لسان شاعر ؟ أم هي دسيسة تصطنع الأدب لتفضّ المخلصين من رعيته عن بابه ... ؟ »

وغص الرافعي بريقه ، وتبين الهاوية تحت قدميه يوشك أن يتردى فيها بحيلة بارعة ، وأحس الإبراشي باشا من ورائه يحاول أن يدفعه بعنف لينتقم لكبريائه التي مسها الرافعي بمحاقتة منذ بضعة أشهر ...

وحاول النجاة بنفسه من هذه المكيدة البيّنة ، فلم يجد له وسيلة إلا الصمت فأوى إليه . وانقطع ما بينه وبين القصر من صلوات ، إلا الصلة العامة التي بين الملك وبين كل فرد من رعيته . وكان أخوف ما يخاف الرافعي أن تكون خاتمة ذلك هي انقطاع المعونة الملكية عن ولده الذي يدرس الطب في جامعة ليون على نفقة الملك ؛ ولكن ذلك لم يكن إلا بعد هذه الحادثة بأربع سنين .

لقد كثر ما استغلّ خصومُ الرافعي السياسةَ لينالوا منه ، ولقد كثر ما اتهموه بأنه من أدوات الإبراشي باشا في محاربة سلطة الأمة ، وأنه صنيعته ومولاه ؛ على حين كان هذا الموقف هو كل ما بين الرافعي والإبراشي باشا من صلوات الود والموالات ! فما انقطعت صلة الرافعي بالقصر إلا في عهد الإبراشي ، وما كان معه يوماً على صفاء . على أنه كان تلميذاً معه في مدرسة المنصورة الابتدائية فيما أذكر من حديث الرافعي .

ولقد كتب كاتب من خصوم الرافعي غداة دالت دولة الإبراشي ، فصلاً مؤثراً ... بمبارات بليغة ... في صحيفة من صحف الشعب ، يصف جناية الإبراشي باشا على الأدب ؛ وكان من براهينه على ذلك أنه اصطنع الرافعي ليحارب بقلمه ولسانه سلطة الأمة ... وقرأت هذه المقالة مع الرافعي ، ونظرت إليه فإذا هو يتسم ابتسامة مرّة ، ثم قال : « هذا أديب يتحدث عن جناية السياسة على الأدب ...

أرأيت . . . ! صدق ! لقد جنت السياسة على الأدب (١) «

لم يكن لهذه المقالات الثلاث التي كتبها الرافعي عن عبد الله عفيفي صدى في غير هذه الدائرة المحدودة ؛ على أنها أنشأت بينهما خصومة صامتة ظلت مع الرافعي إلى آخر أيامه ، وظلت مع الأستاذ عفيفي في أحاديثه الخاصة إلى أصدقائه ، وإلى طلابه في كلية اللغة العربية بالأزهر ...

فلما مات شوقي أمير الشعراء في خريف سنة ١٩٣٢ ، كتب الرافعي عنه مقاله المشهور في مجلة القنطف ، وذكر فيما ذكر فيه أن شوقي لو كان مصرياً خالصاً المصرية لما تهيأت له الأسباب النفسية التي بلغت به مبلغه في الشعر ؛ لأن الطبيعة المصرية لا تساعد على إنضاج المواهب الشعرية ، ولا تعين على إبراز الشاعرية الكامنة في كل نفس .

هو رأي أبداه فيما أبدى من الرأي ، لم يقصد به التعريض بأحد أو الحط من مقداره . وقد يكون رأياً إلى الخطأ أو إلى الصواب ، وقد يتكافأ فيه كفتا الخطأ والصواب ، ولكنه رأي أبداه الرافعي مجرداً من الهوى ، لا يعنى به إلا أن يستوفي عناصر بحثه ؛ ولكن خصومه تناولوه على ألوان وفنون .

أما طائفة فالت به إلى السياسة ، وقال قائلهم : هذا رجل ليس منا ، يريد أن ينكر فضل مصر عليه وعلى آله ، فيتهمها بالعمى وركود الذهن وجود العاطفة فيجردها من الشعراء ... ومضى في دعواه . ذلك سلامه موسى ! ...

وأما ثانية فقلت : وهذا قول يعيننا به نحن الشعراء المصريين ليجردنا من الشاعرية في قاعدة عامة لا تستثنى أحداً إلا من انحدر إلى مصر وفي أعراقه دم غريب ... ومضت هذه الطائفة تنقض دعواه وتسفه رأيه بما تسوق من الأمثال وتذكر من أسامي الشعراء المصريين

(١) لعلنا نتحدث عن هذا الموضوع حديثاً أكثر صراحة في كتابنا : « المؤثرات السياسية في جيل من الأدباء » الذي نعده لننشر قريباً ، إن شاء الله !

وانتضى عبد الله عفيفي قلمه ليكتب في جريدة (البلاغ) مقالات أسبوعية بعنوان (مصر الشاعرة) يذكر فيها من شعراء مصر في مختلف الأجيال منذ كانت مصر العربية ، ما يراه ردًا على دعوى الرافى . ومضى في هذه المقالات بضعة أسابيع يضرب على وتر واحد ، ثم ملَّ هذه النعمة فراح يتصيد موضوعات أخرى من مشاهداته وآرائه في الناس والحياة ؛ ولكن عنوان (مصر الشاعرة) ظلَّ على رأس هذه المقالات يبحث عن موضوعه ... فكان حسب عفيفي في هذه المقالات أن أنشأ هذا العنوان في الرد على الرافى ! ...

وقد ظل الرافى إلى آخر عمره يذكر أيامه وهو شاعر الملك ، ثم ما كان بينه وبين الأبراشى ، وبينه وبين عبد الله عفيفي . وما كانت تظهر للأستاذ عفيفي في الصحف مدحة ملكية ، في موسم من المواسم أو عيد من الأعياد ، حتى يتناولها الرافى فيقرأها إلى آخرها ، ثم يلتفت إلى جليسه فيقول : « ماذا رأيت فيها من شعر ومن معنى جديد ؟ » ثم يسترسل فيما تعود من المزاح والتندر . وقد ذكرت فيما قدمت من هذه الفصول أن الرافى كان يسمى كل جملة من النساء « شاعرة » ؛ فهن كالتنبي ، ومنهن كالبحتري ، ومنهن بشار بن برد ، ومنهن عبد الله عفيفي

فهذه الأخيرة عنده هي ذلك النوع (البلدى) من نساء الطبقة الثالثة ، التى تبدو ملفوفة (محبوكة الأطراف) فى ملاءتها السوداء ، غضة بضّة ، تستهويك بجمال الجسم دون جمال المعنى ، وفيها أنوثة اللحم والدم ولكنها جامدة العاطفة عقيم الخيال ...

ومعذرة إلى الأستاذ عبد الله عفيفي ! فإنما أنا راوية أكتب للتاريخ ، وما شهدت إلا بما علمت ، وعلى تبعه الرواية وعلى غيرى تبعه الرأى . وللأستاذ عفيفي فى نفسى على الرغم من ذلك كلُّ إجلال واحترام !